

الفقر أساذ...

للأستاذ السيد محمد زيادة

التقى رجلان فقيران، كلاهما سقع ذليل لفقره ... وجلسا يتشاكيان ويتناجيان بأحاديث يصل فيها الفقر إلى الألم، ويصل الألم إلى الحسرة، وتبلغ الحسرة في الثورة. وتنتهي الثورة إلى الدموع ... ثم يكون بعد الدموع الاستسلام والجلد والهدوء والراحة

قال أحدهما للآخر: هبك أصبحت غنياً من أهل الترف والنعيم والجاه؛ فكيف تكون في غناك. وماذا تعمل إذ ذاك بمالك؟

فأجاب: أكون ظلامياً يروى إليه الشرذء بلا قيد، ويتفيؤه الفقراء بغير عناء، وأكون حلقة الاتصال بين الأغنياء والمساكين ... أعطى أولئك المساكنة والمظهر، وأعطى هؤلاء النفس والجوهر

لا تلبث أن تندثر خلال هذا النظام الإصلاحى إذا لم تقذف بقرينة موحدة مستندة على نظام تعليمى مرحد.

ولذلك أقول: إن إعادة النظر في أسس نظام التعليم أصبحت من الواجبات التي تتحتم على مصر في مستقبل حياة النهضة التي دخلتها الآن.

— ٥ —

هذه ملاحظات تتعلق بأسس نظام التعليم في مصر، أبسطها أمام الرأي العام المستنير بكل احترام وصراحة وإخلاص. وأرجو ألا يعتبرني أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات، فأني عربي صميم أدين بدين والعروبة، في إيمان وصدق، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق. ولا أكون مغالياً إذا قلت: إنني أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق، لأنني أعرف أن مصر - بحسب أوضاعها العامة - أصبحت «القدوة المؤثرة» في العالم العربي بأكمله. فأعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل في مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية، كما أن كل نقص يعيش ويستمر في مصر لا يخلو من ضرر العدوى إلى سائر البلاد العربية.

فكل خدمة تقدم إلى مصر تكون كأنما أُسديت إلى سائر البلاد العربية جمعاء.
أبو خلدون
(ساطع الحصرى)
بغداد

وأما مالى فلا يكون إلا مطية للكرم وبجالة للعطف وسبيلاً للرحمة، ولا أكون عليه إلا كالأمين على مال موقوف للخير، ولا يكون لى منه إلا ما للرضع من لبن ثديها تدره به للترية

والتقى رجلان غنيان كلاهما مرهوب مرفوع لغناه ... وجلسا يتداعبان ويتنادمان بأحاديث يصل فيها الغنى إلى الفخر، ويصل الفخر إلى الكبر، ويبلغ الكبر إلى التعظيم، وينتهي التعظيم إلى الوقاحة ... ثم يكون من الوقاحة انتفاخ الأوداج واتساع المزاعم وادعاء المستحيل

قال أحدهما للآخر: هبك أصبحت فقيراً من أهل البؤس والعدم؛ فكيف تكون في فقرك؟ وماذا تجد إذ ذاك في دنياك؟ قال الثاني: وهل تتوقع الفقر لأمثالنا؟

قال الأول: ليكن هذا مستحيلاً، ولنفرض أنه وقع ... قال الآخر: إذن أنتحر ...

ومشت الأيام في طريقها إلى غايتها ... فإذا الفقير المعدم غنى موسر يتدرج نحو الثراء وشيكا؛ فيجد في كل عمل حظاً، ويكسب من كل حظ ثروة، ويحس في كل ثروة سعادة ... لأن الدنيا رضية عنه فراحت تسترضيه، ومالت إليه فأخذت تستميله وقد كان بين آخر العسر وأول اليسر يحمل تلك النفس الطيبة التي كان يحملها وهو فقير والتي أوحى إليه إذ ذاك أن يقول لصاحبه ما قال ... فظلم نفسه باستمساكه بمذاهب الفقر واستعداداته حياة الفقراء!! ثم تغير قليلاً فكانت دنياه مزيجاً من حياته القديمة وحياته الجديدة، فأ نصف نفسه بذلك وعدل بين الفقر والثراء!! ثم تغير تغيراً يبنياً فنسى الفقر ونسى أنه كان فقيراً، وحقر الفقراء واستقر في الأغنياء، وطفى واستكبر، وبدل النفس الخيرة بنفس شريرة، واستطاب لسانه كلمة أنا ... وبذلك لبس الغنى كما يشاء الغنى أن يلبس

وويل للغنى من جهله إذا تسلط على عقله الغرور فتعبده!! ينسبه أنه إنسان ويلقى في روعه أنه فوق مرتبة البشر، ليجرّده من صفات الإنسانية، ويكسوه صفات غيرها تنصّره تحت: ودائماً تحت مرتبة البشر ... المال في يده مفسدة لخلق ومضیعة

للفضيلة ونداء للجشع وقضاء على الرحمة ...

لقد تلف الرجل ، وفقدته الحياة حياً فلم يصبح معدوداً في الناس ؛ وإنما أصبح رفقا حساسياً لثروة واسعة ليس من ورأها خير

ومشت الأيام في طريقها إلى غايتها ، فإذا الغنى الذي استبعد على نفسه الفقر قد رجع فقيراً يستبعد على نفسه الرجعة إلى غناه .
تمور به الدنيا وتبي . له في كل خطوة عثرة ، وفي كل عثرة كربة ، وفي كل كربة مصيبة ، وفي كل مصيبة همأ وشقاء ... لأنها غضبت عليه فراحت تقصيه عنها شيئاً فشيئاً لتقطع أسباب المودة بينها وبينه

وكان في بدء انكسار حظه واغتراب نجمه يستكبر على الفقر ويتعظم على القدر ، ويحاول بشق النفس ألا يتحول مرتعه ولا يتبدل منزعه ، فوضع نفسه بهذا أمام الدنيا في موضع الحرّد والعنت ليناصبها العدا ، ويملي عليها العصيان والكبرياء . ثم اشتدت عليه غصبة الدهر فأيقظت فيه بعض عقله ونهته إلى حاله ومصيره ... فاعتدل طغيانه ، وفتر عنفوانه ، وهمت به نفسه الخائرة الواهنة تريد على أن ينتحر فراراً من الفقر النازل ؛ ولكن راجعته بوادر السمو المنساقة إليه في بوادر الفقر ... فتشجع واستمهل نفسه فيما أرادت . وكان في هذا كالذهاب على رغبته إلى ميدان الحرب ...

ثم تمت صنعة الفقر فيه ، فتأهب للصبر الطويل ، وتماسك عزمه لاحتمال الفاقة وصراع الزمن ، وتهذبت سريره من شوائب الغنى وكفر المادة ؛ وبذلك أسلحت نفسه بالحقيقة وحسن إسلامها .

الفقر في ذاته قبيح شديد القبح ؛ ولكنه في عمله جميل رقيق الجمال ، إذا نزل بالرجل مسخه وبذل في طبيعته ، وصير منه للناس الفقراء رجلاً خفيفاً محبوباً ، وصير منه للناس الأغنياء رجلاً ثقيلاً مبغضاً ، وصير منه بين أولئك وهؤلاء رجلاً بين المحبوب والمكروه ... فيصبح الرجل بفقره ثلاثة رجال ، لكل منهم روح خاصة تضعه في مكانه من الإنسانية

وإذا رضى الله عن رجل من ولدوا أغنياء وأحبه امتحنه بمحنة الفقر ليخلق منه إنساناً في أرفع درجات الإنسان ، وإذا

٨٠ ١٢

غضب على رجل من ولدوا فقراء ومقته هيأ له الغنى وغمره به ، ليخلق منه رجلاً آخر بين الإنسان والحيوان ... حتى إذا أراد الله وعاد الأول إلى غناه وعاد الثاني إلى فقره شعر كل منهما بنعمة الفقر وإن الفقير ليتعلم من فقره القناعة فيجد سعادته في قناعته ، كما يتعلم الغنى من غناه الجشع فيجد شقاه في جشعه ...

ولا يعرف الفقير أنه فقير إلا إذا عرف أن غيره غنى ...
ولا يشعر بوجود الفقر معه إلا إذا شعر بامتناع الغنى عليه ؛ فإذا اجتمع قوم من الفقراء ولم يكن بينهم واحد من الأغنياء ، لم يجدوا للفقر مَضَضاً ولوعة ، ولم يحسوا أنهم فقراء ... حتى يكون منهم أو يكون بينهم ذو يسار فيرويه في مباحج النعيم ومناهج السعادة ، فيفكرون في حياته حياة أخرى لم يألفوها ولم يعرفوها ، ثم يفكرون في حياتهم فراغاً لا يملؤه إلا المادة ، ونقصاً لا يسده إلا الثراء ، ثم يفكرون فيعرفون أنهم فقراء ...

والفقراء في هذه الحياة مظلومون لأنهم يحرمون بقدر ما يعملون ...

والفقر يمتاز من الغنى بأنه ألزم للحياة وأدعى لسلامتها . فليس الناس إذا جمعهم الفقر فصاروا جميعاً فقراء ، كالناس إذا جمعهم الغنى فصاروا جميعاً أغنياء ... إذ لو أراد الله الحالة الأولى لوجدنا الناس كتلة واحدة مبنية على الطهارة الفطرية مدعمة بالاخلاص الروحي ؛ يتبادلون المعروف ويتعاونون على أيامهم بمناعة الإيمان وقناعة النفوس ... فتصلح لهم وتصلح بهم الحياة ، ويعيشون في نعيم دونه نعيم الغنى ...

ولو أراد الله الحالة الثانية لوجدنا الناس كالوحوش بنفوس داجية وعقول ضارية ؛ يتعشق كل منهم التسلط حيث لا مجال للتسلط ، ويستكبر على القيام براحة نفسه فلا يجد من يقوم براحة ... فتفسد عليهم وتفسد بهم الحياة ، ويعيشون في جحيم أخف منه جحيم الفقر ...

فالفقر أستاذ أخلاق ، ومن قدر له أن يكون أحد تلاميذه فقد قدر له أن يتلقى دروس الحياة

طنطا

السيد زياده